في الذكرى ٢٢

مقدمات من فكر كمال جنبلاط المستقبلي

شبلي ملاط

أسباب شخصية عدة تشدّني الى الذكرى ٢٢ لغياب كمال جنبلاط، ليس أقلها صداقات القربى الفكرية عبر الأجيال في "حقبة خصبة من تاريخ لبنان، وحقبات هذا التاريخ لا تتجزأ". كما جاء على لسانه في يوم تأبين جدّي شاعر الأرز عام ١٩٦١ (مدرسة ٣٢٥).

فصون هذا "التاريخ اللبناني الأصيل الحي الذي نحافظ عليه، في زوايا قلوبنا المطهرة" (مدرسة ٣٢٤)، سوف تبقى أمانة في أعناقنا لأن المرء بماضيه، ولأنه مفطور على حمل ماضيه في حاضره ومستقبله.

لكنّ كمال جنبلاط يتميّز في قراءة لتراثه المكتوب، تتعدى الصداقة والقربى والوطن، بما يستشرف من أفكار تفيد العقل في فهم العالم، وفي تغيير العالم بفهم منوّر له. من نادر الرجالات من يتمتع بصقل المستقبل بأفكاره، ومقاربة الباحث للمحطات المستقبلية في فكر كمال جنبلاط لن تثبت في المقام اذا ما تمت في غير اطار كوني يسمح بوضع المفكّر في مقارنة بأنداده الأفذاذ في مختلف أقطار العالم المعاصر.

لكمال جنبلاط رونق خاص يتيح لمن يجتهد في متابعة مؤلفاته الغفيرة ان يتسنم في ملامح القرن المقبل محطات فكرية جامعة. فالشجاعة الفكرية المرتبطة بسعة الاطلاع وحب الاتصال بالغير في العبارة المنشورة، هي التي تسمح برسم الملامح المستقبلية لهذه المحطات، يشترك فيها جنبلاط مع عدد من المفكرين غير التقليديين في العالم، تعرّضتُ لبعضهم في دراسة تمتد على عقدين، منهم العراقي محمد باقر الصدر، والعالم المصرفي – الاجتماعي الفرنسي روبير فوسارت، وزميله الفيلسوف الراحل جيل دولوز، واصحاب الفكر الدستوري والاقتصادي الأميركي المتقدم، وكل منهم، بذلفيته الخاصة، اقدم على فتح ابواب القرن الحادي والعشرين بقوة فكره وعميق ثقافته المبدعة.

والمحطات المستقبلية مرتبطة لدى جميع هؤلاء المفكرين بعدد من المقدمات المتشابكة المشتركة، نعرضها هنا كما جاءت بتعابير خاصة بكمال جنبلاط، وقد ركّز دائماً على انها مرايا لـ"مدنية كونية واحدة شاملة لشتات الحقيقة كلها" (١٩٤٦ ندوة ٩٨) هذه العالمية، او الكلّية، او الشمولية، هي المقدمة الاولى لتلك المحطات، ولجنبلاط في هذه المقدمة نصوص كثيرة عبر الزمن: "اذا رأينا من واجبنا ان توفّر لنا السماح الشامل – ان نضع في كتاب، هذه اللمحات والخواطر التي تعبر عن هذا الذي نسميه، في لغتنا ومنطقنا الجدليين، الثوابت البيولوجية والحياتية والنفسية والمعنوية، اي المعايير الثابتة للانسان، مهما تبدلت في ظاهره، لأنه في النهاية ظاهرة لواحدية تتعداه ولمحور نظامي يفرض مسار نموه الجسدي والعقلي ضمن اطار تخطيطه وتصميمه، فسبحان العقل الذي هو متجلٍ قائم في كل شيء، لأنه نظام الكون". (١٩٧٤ أدب ٨).

وبالفعل، فان مقدمة الشمولية، او الكونية، او "التكوّر Planétisation" (مثلاً ١٩٦٤ ثورة ١٨)، واذا شئنا تهجينها، العولمة الفكرية، مقدمة متصلة اتصالاً وثيقاً بالمقدمة المشتركة الثانية، التي تركز على العقل، "مولانا العقل الذي منه انبثقت في ما بعد الكائنات" (١٩٤٦ ندوة ٩٣). "فالعقل هو تطوّر للغريزة الحيوانية في مستوى الانسان، العقل اتخذ لدى الإنسان مكان الغريزة ونموّه. والمعرفة مفتاح هذا العقل". (١٩٦٤ ثورة ٢٠). والترداد لمركز العقل وأهميته لا ملل منه في نظرة كمال جنبلاط: "في البدء كانت الكلمة، ونحن نقول في البدء كان العقل" (١٩٦٦، ثورة ١٧٦).

ومن بين المقدمات المشتركة، ثالثاً، تعدّد المناهل والمصادر الثقافية والحضارية واللغوية، وهي التي اشتهر بها جنبلاط في جمعه المستمر، حضارياً، بين الشرق والغرب؛ وفي الشرق نفسه بين الحضارة الهندستانية ومبادئها الروحية، والثقافة العربية الاصيلة في أدابها المختلفة؛ وفي بحر الفكر الغربي، بين الديموقراطية الليبيرالية والاشتراكيات المختلفة، وفي تناول لبنان نفسه مكاناً مميزاً للتلاقي الفكري واللغوي والثقافي، "فدعوة البحر الابيض المتوسط التي تجمعنا اليوم في بيروت، في لبنان – فسيفساء حقيقية للديانات والملل والحضارات، وهو الشرق المصغّر" (١٩٧٤، ندوة ٥٤٢).

اما المقدمة الرابعة فجلاؤها باهر في عبارة جديدة في القاموس السياسي المعاصر، اعطاها كمال جنبلاط عنواناً للحزب الذي أسسه. هي التقدمية، بما يفصلها عن التيار الرجعي، او التيار المحافظ في مصطلح أقل وطأة، ففكرة المضي قدماً، الى الأمام دائماً، راسخة في اقتناعه بأن التاريخ، مهما كانت ثوابته متجذرة في التراث الفكري، يجدر دوماً تخطيه باستيعابه. ولا يتم هذا بأقل من "ثورة في عالم الانسان" جاء في ختام سرد معالمها: "هذه بعض المعابئات لمواقع الانسان المعاصر في شؤون الحضارة والآلة والنظم والنظريات التي لا تزال تسيطر عليه. وهي تدل الى نزعة اخذت تتصور في الذهن العام، تقتضي بأن يتعدى فعلاً هذا الانسان جميع النظرات المحض معتقدية والايديولوجية السابقة المرتهنة للتفكير والتصرّف البشريين والجاهزة لتطورهما في قلوب مرورتة من مفاهيم خاطئة او محدودة للعلم وللفلسفة وللاقتصاد والسياسة كما برزت في القرنين السابقين وفي بدايات القرن العشرين.

... فلأول مرة او ربما لمرات قليلة في التاريخ، نستطيع بفضل تعميم المعرفة الصواب – ان نحن شئنا – ان نتجاوز حتمية قدر بعض سنن التاريخ وعثراته" (ثورة ٢٥٧– ٥٨).

والمقدمة المشتركة الأخيرة، والتي تربط بفعل استشهاده لها، هي السيرة كالموضع الأسمى لانصهار الفكر والحياة، فسيرة كمال جنبلاط انصهار بين فرد متفوق ومجتمع تبعه، وان لم ينجحا معاً في اكمال الطريق، كما ان هذه السيرة انصهار بين الفكر والعمل، وبين العقل والقلب، "فالحضارة تتعلق بتطوّر فهم العقل وجلاء بصيرته ودعوته الى صفاء الينبوع حيث يتلاقى مع الشعور المعذب الذي يكون ارتفع بدوره وارتقى في معراجه الى حيث يكون العقل والقلب واحداً، هذا يستضيء بنور ذاك، وذاك يستوحي السبيل بشواعر هذا المعرفة التسامية، ومن لا يستدل الطريق بنور القلب كالاعمى برأس عصا، يضلّ عن الطريق ويتخلّف عن القافلة. ومن جهة مقابلة، لم يستوعب القلب في مسيره اهداف العقل الاخيرة ويستبطن خطوه ويتبنى منهجه وتصميمه وجوهر تكوينه، دار على نفسه في ظلمة الوزغان وتاه في فيافي الانجذابات.

... فالعقل في معناها الأصيل وفي النهاية هو النور الحقيقي في الانسان وهو القلب واحد في هذا المستوى من الينبوع. وانما الانسان وكذلك الحضارة، لا يرتفع ولا ترتفع الا اذا تم العقل وتزاوج الاصلان وتوحدا في حركة التطلّع والسعي والخلق. في البدء كان العقل، وكانت الروح ايضاً اذاً ينصهر بما العقل والفعل، متّوجة بأسمى العبر وهي الاستشهاد.

هذه هي بعض المقدمات البشتركة لمفكّري النصف الثاني من القرن العشرين، في منى استشرافنا منهم لعالم القرن الحادي والعشرين، وعرضناها بايجاز في الاسلوب والكلمات الخاصة بكمال جنبلاط، من الممكن بعد تثبيتها تناول المحطات المستقبلية التي تتميز بها مساهمة جنبلاط الفكرية.

لسنا بصدد حديثنا الموجز اليوم، ان نتناول جميع هذه المحطات. فاذا كان من الطريف ان نذكر إلحاحه على المحافظة على البيئة كعنصر اساسي في "أدب الحياة"، بما يشمل فصلاً كاملاً عن "أدب الانسان بالنسبة للطبيعة الخارجية" (١٩٧٤ ادب ٩٩ – ١١٦)، الا ان موضوع البيئة لا يمكن الإحاطة به عند كمال جنبلاط خارج اطار عام يشمل "حديث الفساد والافساد [الذي] يقودنا بشكل طبيعي الى التحدث عن التلوث العام للبيئة الذي يشهد انتشاره بشكل مخيف اللبنانيون... فمياه الشواطئ ملوثة بما يصب بها من المجارير، ومن هذه المجارير المستحدثة التي يفيض منها في الزهراني وطرابلس، النفط على الشواطئ وفي المياه. ومعظم مياه آبار بيروت وضواحيها ملوثة، واجواء المدينة ملوثة بنتاج محروقات السيارات والمصانع، ويؤلف التلوث سحابة في بعض الأيام تكاد تحجب اشعة الشمس وليست هي بغيوم، والمآكل والمشارب في كثرتها ملوثة، والاودية والغابات والسهول والشوارع تلوثها قذارة ما يرمى فيها، ومعظم انهارنا ملوثة، والصناعة المستحدثة تفرخ بدون رقيب او محاسب... وقد اضحت بلادنا وكأنها قاع مخضه من فراغ شدو الطبيعة الحيّة، لا تسمع في ارجائها اغنية لصادح "يدوزن حنجرته على مياه شلال" على حد تعبير أحد الشعراء، وكأننا نفرغ الجمال من ديارنا ومن نفوسنا، قصداً وعمداً لتعاستنا. واننا نلفت نظر وزير الداخلية الى ضرورة تطبيق التدابير القاضية بحماية هذه المنطقة وتلك..." (ربع قرن ٤٨٣ – ٨٤).

فاذا كان لهذه الصرخة التي تعود الى اوائل السبعينات موقع خاص لما تمثّل من حقيقة تعمّقت بمرّ الزمان، الا انما لا تأتي شذرة مستقلة عن نظرة أكثر شمولاً تربط مثلاً هذه الفقرة بالذات بحديث للمهاتما غاندي وللعالم الاقتصادي الشهير جون كنيث غالبريث. فلا بد من العودة الى هذه المحطة المستقبلية الشاملة للاخلاق والبيئة والفساد والاقتصاد على نحو مترابط يفي بتكامل نظري يجعل من فكر كمال جنبلاط قالباً مكتملاً، فريداً في القرن العشرين، ويضم محطات عديدة أخرى، في الديموقراطية وحكم القانون، والشرق الاوسط الجديد، والثورة واللاعنف، والاشتراكية المتصوفة، والابداع الفني والعلمي.

ولكل محطة من هذه المحطات بحثها الخاص.

محام – كاتب سياسي

* المقالة مستلة من حديث في منتدى الفكر التقدمي، ١٥ اذار ١٩٩٩، بعنوان "محطات مستقبلية في فكر كمال جنبلاط".

** الكتب المذكورة في النص (مع تاريخ المساهمة متى توافر، والصفحة)، "كلمة كمال جنبلاط في شبلي الملاط، مدرسة التلاقي الوطني"، "رسالتي كنائب" و"La Méditerranée, berceau de cul-ture spirituelle"، "في عمد الندوة اللبنانية"، "أدب الحياة"، "ثورة في عالم الانسان"، "ربع قرن من النضال".